رؤية الوظيفة الاجتماعية والثقافية للمقهى

تأكد للباحث من خلال ملاحظاته الأزلية المركزة للعادات الاجتماعية المتصلة بالمقهى أنها تنطوى على مجموعة من الرموز والمعانى توضح طبيعة العلاقات والتفاعلات الاجتماعية القائمة بين الأفراد وتكشف عنها.

وقد شملت الدراسة عدداً كبيراً من المقاهى المنتشرة بمصر، وحرص الباحث على اختيار المقاهى التى تمثل المناطق المختلفة والأحياء الراقية والشعبية على حد سواء، للتعرف على روادها، كما شمل هذا الاختيار أيضاً المقاهى الحرفية والمهنية ومقاهى "الأفندية" فى أحياء المدينة المختلفة.

استعان الباحث بعدد من الإخباريين فى جمع المادة ، وفى إجراء الاتصالات اللازمة بأصحاب المقاهى والعاملين بها وروادها، لمعرفة الوثيقة المسبقة بهم. واتبع الباحث طريقة الملاحظة بالمشاركة فى الجلوس على المقاهى وارتيادهما المستمر لها، وتناول المشروبات الساخنة والباردة، بل وحتى تناول الشيشة والنرجيلة مثل الزبائن تماماً.

إن المقاهى عالم فريد متشابك العناصر، يحوى الملامح الإنسانية العامة، وله أيضاً سماته الخاصة جداً. ففى المقاهى يجلس الناس حول المناضد متواجهين، يتبادلون النجوى، والأحاديث، والأشواق الإنسانية، والمصالح المادية، وقضاء الحاجات، وعقد الصفقات، وثمة من تلفه الوحدة، يجلس محملقاً فى الفراغ، وقد يحاول قهر وحدته بحديثه إلى جار لا يعرفه، وربما لا يتخطى أكثر من حدود اللقاء.

ويرتبط المصريون بالمقهى ارتباطاً كبيراً، ولكل منهم مقهاه المفضل الذى يقع عادة بالقرب من مسكنه أو مقر عمله، وفى المقاهى يتخذ البعض مقراً ثابتاً لأعمالهم التجارية، مثل السماسرة والمقاولين، كما يطوف بها الباعة الجائلون يحملون بضاعتهم التى تتشكل من أقلام الحبر والنظارات والمحافظ الجلدية وسلاسل المفاتيح المعدنية، وعندما يدرك التعب أحد هؤلاء الباعة يأوى إلى مقعد ملتمساً بعض الراحة، وفوق ملامحه يبدو الشقاء والكد.

ويرى البعض أن المقاهى أماكن يتبدد فيها الوقت، وتعطل الإنتاج، ولكننا إذ نركن إلى أحد المقاهى القديمة، نحاول تلمس معالم هذا الزمن الرائق الحلو الذى نفتقده الآن فى الضجيج والزحام وإيقاع الحياة السريع اللاهث، نرى أن المقهى نموذج مصغر لعالمنا الذى يضج بكل ما تحتويه دنيانا.. ولم يخطئ بونابرت حين قال: ليس من الشرق الأسطورى أو المتحضر من لا يضيع وقته فى مقهى أو يضحى بقليل من عمره فى إعداد المشروب الساحر!!"

المقهى فى المجتمع الشرقى:

يلتقى دائماً رواد المقاهى ذات الطابع الشعبى أو الارستقراطى المنتشرة فى بلاد الشرق، بما فيها مصر، حول فنجان قهوة مضبوط أو زيادة أو سادة.. فتدور الأحاديث والندوات والنكات والثرثرة. وقد ارتبط المقهى فى مصر شأنه فى ذلك شأن بلدان عديدة فى العالم بمشروب القهوة، فهى فى مصر "قهوة" أو "قهاوى" أو "مقاهى".. وفى بلدان أخرى حسب ثقافتها ولغتها "كوفى شوب" أو "كافى".. وهكذا..

مع بداية القرن العاشر الهجرى كان الجدل الذى دار حول مشروعية شرب القهوة قد حسم، فانتشرت فى مدينة القاهرة الأماكن التى تقدمها، والتى أطلق عليها اسم "مقاهى" أو "قهاوى".. ولكن من الجدير بالذكر أن هذه الأماكن كانت موجودة قبل أن يعرف المصريون مشروب القهوة، حيث كانت تقدم بتلك الأماكن الحلبة والكركديه، وذلك قبل أن يعرف المصريون مشروب الشاى الذى جاء به الإنجليز إلى مصر فى عام ١٨٨٢، فأصبح مشروب الشاى معروفاً ومنتشراً بين المصريين منذ ذلك التاريخ.

شبكة الدخان من سنة الفيل إلى اليوم!! :

وما أن جاء القرن الحادى عشر الهجرى حتى ارتبط تقديم مشروب القهوة بالدخان أو التبغ، فقام الجدل من جديد، وأصبحت المشكلة أكثر تعقيداً، لاسيما وأن أهل الجزيرة العربية فى مكة قد حرموا الدخان تحريماً قاطعاً، وكانت حجتهم فى ذلك أنهم شاهدوا كثيراً من المسلمين فى أماكن عديدة يجالسون ويخالطون الأوروبيين

المدخنين للغليون. أما فى مصر ومنذ القرن الحادى عشر الهجرى، وحتى قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر، كانت القهوة تقدم ومعها "شبك الدخان"، والذى جاء فى كتاب وصف مصر بأنه شبيه "بالجوزة" أو "النارجيلة".. ويتكون من ثلاث قطع هى: الفم أو المبسم، والأنبوبة، وعامود الشبك أو حجر الجوزة.

وعادة ما كان يصنع المبسم من الكهرمان ويرصع بأحجار كريمة، لاسيما إن كان استخدامه بأيدى الأغنياء، أما فقراء الشعب فيستعملون مبسماً مصنوعاً من سن الفيل أو العاج.. أما الأنبوبة فكانت تصنع من خشب الورد أو المسك إن كانت لدى الأغنياء، وطولها من نصف متر إلى متر واحد، وكان الأنبوب يكسى بالحرير ويزخرف بالفضة أو الذهب.

أما فقراء الشعب فكانوا يصنعونه من بوص الغاب، ويستعملونه دون زخرفة، أما عامود الشبك أو حجر الجوزة فكان يصنع فى بداية الأمر من الصلصال المحروق، وبأحجام مختلفة، إلى أن تفنن الصينيون فى صناعة أنواع منه، عرفت باسم الأحجار الصينية، وهى مزركشة ومزخرفة بزخارف زاهية، وكان شراؤها واستخدامها قاصراً على الأغنياء وعلية القوم من الرجال والنساء على السواء، أما الفقراء من الشعب فظلوا يدخنون الشبك فى أحجار الفخار.

المقهى فى "وصف مصر" :

أما عن المقهى كما جاء فى كتاب وصف مصر، فهو مكان رحب متسع مبنى عادة من طابق واحد، يتميز بالهندسة المعمارية الإسلامية فى الزخرفة، تنعكس آثارها على صناعة أبواب ونوافذ وسقوف وأعمدة المقهى، يجلس الناس فيه على مصاطب مفروشة بالحصير. وكانت تكعيبات العنب ونباتات الزينة تحيط دائماً بواجهات المقاهى. والجلوس على المقهى لم يكن قاصراً على تمضية وقت الفراغ وشرب القهوة وتدخين الشبك، وإنما لعب المقهى دوراً مهماً فى أحداث الإنسانية، عندما كان المذياع فى علم الغيب، فارتبطت المقاهى والتحمت بأخبار الغزوات والانتصارات والفتوحات، فكانت آخرها فى مصر قصة الظاهر بيبرس التى ظهرت وانتشرت

بمقاهى القاهرة كرد فعل للغزو العثمانى لمصر عام ١٥١٧ ميلادية، هذا فضلاً عن انتشار ملحمة "أبو زيد الهلالى" بعد هزيمة الثورة العرابية، وقصص "عنترة العبسى"، و"ألف ليلة وليلة"، وروايتها وسردها كان أشبه بالمسلسلات الليلية المتتابعة، والتى يتشوق الناس إلى سماعها، فهى لا تحكى ولا تقص فى ليلة واحدة.

المقهى والرأى العام :

فالمقهى ليس المكان المخصص لقتل أو تمضية وقت الفراغ وتناول المشروبات. إنما المقهى مكان يتشكل فيه الرأى العام، وتنطلق منه الشائعات، وتصاغ فيه النكات والقفشات، وتتركز عنده الدعاية والإعلان وقت الانتخابات الحزبية والبرلمانية، وتعقد بداخله الصفقات التجارية والندوات الأدبية والثقافية. كما يدور بداخل المقهى حوار المثقفين، وجدل وثرثرة العوام، ويتوقف عنده السماسرة والمقاولون، ويطوف حوله وبداخله الباعة الجائلون، فالمقهى مكان لقاء الأصدقاء يتبادلون أحاديث النجوى والشكوى، وإزالة الهموم، وهو المأوى حين يأتى الغرباء فيتجاذبون أطراف الحديث مع غرباء مثلهم، فتذوب وحدتهم فى ضجيج المكان وبهجته. فضلاً عن ذلك فإن المقهى مكان تتم بداخله أحياناً أعمال يرفضها القانون والعرف، حين يرتاده العاطلون والكسالى، يغازلون الرائحات والغاديات من النساء، وقد يتشاجرون فى النهاية، ويحطمون المقاعد والمرايا والمناضد، ويحولون المقهى إلى مكان سيئ السمعة لفترة من الوقت.

المقهى: المكان والعمل.. وصف تفصيلى!!:

عموماً فإن المقهى عبارة عن مكان متسع يفضل لإقامته أن يكون مطلاً على أحد الميادين أو الشوارع العامة، ومجهز من الداخل بالأدوات الضرورية اللازمة لتشغيله والترخيص بإنشائه، ومن بين تلك الأدوات على سبيل المثال لا الحصر "العدة" والتى تشمل عدداً من أكواب الشاى والماء، وأكواب أخرى أصغر حجماً كمشروب القهوة، إضافة إلى عدد من الفناجين والصوانى والشيش، وأكواب العصائر المختلفة.

هذا فضلاً عن أن المقهى ينقسم من الداخل إلى مكانين رئيسيين، الأول وهو

مكان يتسع لجلوس الزبائن، توضع به الطاولات والكراسى بما يسمح لكل جليس بالشعور بالراحة والاسترخاء وعدم المضايقة من الآخرين، وإلا فكر الناس أو المترددون على المقهى فى تركه والذهاب إلى مقهى آخر أكثر رحابة واتساعاً.

كما يوجد بالمقهى الأدوات اللازمة لتجنب الحرائق، وقد يكون وجود مثل هذه الأدوات شرطاً ضرورياً للحصول على ترخيص إنشاء المقهى من الجهات الإدارية المختصة.. أما المكان الثانى فهو ما يسمى "بالنصبة".. وهى مكان متسع يوجد فى نهاية المقهى من الداخل لتجهيز المشروبات الساخنة والباردة، وتتكون النصبة من "الرمالة"، وهى عبارة عن قطعة مسطحة من خام "الستالستيل" المحمل بها عادة عدد ٢ صنبور أحدهما للماء البارد، والآخر للماء الساخن، كما يوجد بالنصبة قطعة مسطحة مستطيلة من "الصاج" المحمل يوضع تحتها شعلة أو عدة شعلات من النار سواء كانت بوتاجازاً أم وابوراً من الكيروسين.

ويوضع فوق الصاج الساخن كمية من رمل البناء ليحتفظ بالحرارة المنبعثة من أسفل الصاج، ويوضع فى هذا الرمل الأدوات والأوانى المملوءة بالماء الساخن لعمل القهوة والشاى والمشروبات الساخنة، وحتى تكون جاهزة ومعدة من أول نداء من قبل "الجرسون" أو السفرجى إلى عامل النصبة أو "البورفيجى".. وتوجد أعلى الرمالة هواية تسمى المدخنة.

وعادة ما يلاصق الرمالة من الناحية الأمامية المواجهة لجلوس الزبائن بالمقهى قطعة مستطيلة من الرخام أو "المزايكو"، توضع عليها المشروبات الجاهزة، كما يوجد على هذه القطعة الرخامية حوض كبير به صنبور مياه لتجهيز أكواب الماء مع طلبات زبائن المقهى.

أما فى نهاية النصبة من الجهة الخلفية يوجد حوض به صنبور مياه خاص بغسيل الأكواب وأدوات المقهى، وتوضع بجوار هذا الحوض "الشيش" المعدة لزبائن المقهى من المدخنين وبجوار الشيش توجد "راكية النار" أو "الولعة".

وعموماً فإن المقهى يختلف من حيث الحجم والمساحة والأدوات عن "البوفيه"

الصغير الحجم، والذى لا يتسع إلا لعدد قليل من المترددين، كما أن أدواته اللازمة لتشغيله غالباً ما تكون أقل من الأدوات المستخدمة فى المقهى الكبير، ويقع فى أحد الشوارع الجانبية، أو فى طرقات الهيئات والمصالح الحكومية لخدمة العاملين بها، وهو لا يحتاج إلى إجراءات إدارية فى قدر تلك الإجراءات التى تتبع عند إصدارات تراخيص المقاهى.

أما عن إدارة المقهى والتنظيم الاجتماعى بداخله، فلا يمثل المقهى وحدة اجتماعية تنظيمية معقدة، وإنما يتميز بالبساطة فى إدارة شئونه وفى تسلسل قيادة العمل بداخله، حيث يمثل صاحب أو أصحاب المقهى أو من ينوب عنهم فى إدارة المقهى أعلى سلطة فى إدارة شئونه، يكون مسئولاً أمام الجهات الإدارية والحكومية، وجهات الضبط والأمن العام، فى كل ما يتصل بالمقهى وتحقيقه للأمن فى المنطقة التى يوجد بها.

يلى ذلك فى تسلسل القيادة داخل المقهى بعد صاحبه أو مديره الفعلى كل من "البوفيجى" عامل النصبة أو "السفرجى" الجرسون أيهما أقدم فى عمله لدى صاحب العمل، ثم يلى ذلك "الجرار" وهو الشخص المكلف بمراقبة المقهى وجمع فوارغ الأدوات والأكواب من الزبائن وتوصيلها حيث موقع النصبة الرئيسية.

ومن الجدير بالذكر أن تنظيم العمل بالمقهى والتسلسل القيادى بداخله وتوزيع العمل بين "ورديتى" فترة الصباح والمساء يتسم فى غالبية الأحيان بروح الفريق الجماعى، وذلك من أجل أداء مهمتهم فى كسب رضا وتقدير زبائنهم لهم. ولكن رغم ذلك فإن المقهى لا يمثل الوحدة الاجتماعية والترفيهية المثالية البعيدة عن مشاكل العمل والعمال، وإنما من خلال ما بينته الدراسة الأنثروبولوجية، فإن أصحاب المقاهى دائمى الشكوى من كثرة تغيب العاملين لديهم من جرسونات وبوفيجيه وغيرهم.

وقد يكون السبب فى ذلك هو رغبة هؤلاء العمال فى التنقل والالتحاق بالعمل فى مقاهى أخرى يكون عائد العمل بها أكبر، ولهذا أظهرت الدراسة أنه من النادر أن نجد مقهى من المقاهى يدفع أجور عمالته بالأسبوع أو الشهر، وإنما غالبية المقاهى تدفع أجور عمالتها "باليومية" يومياً بعد نهاية يوم العمل.

تأثير الموقع الجغرافي على طبيعة المقهى:

هناك صفات أو سمات غالبة تسود أو يتسم بها عدد من المقاهى بحسب المواقع والأحياء التى تتواجد بها تلك المقاهى، فمثلاً إذا كانت المقاهى بجوار مواقع الأسواق التجارية فإنها تأخذ صفة أو وظيفة تجارية أكثر من صبغتها الترفيهية فى قضاء واستثمار وقت الفراغ، حيث يستثمر الفراغ بها فى ممارسات وأنشطة تجارية كإبرام الاتفاقيات وعقد الصفقات وغيرها.

وهذا ينطبق على المقاهى الواقعة بالقرب من الإدارات الحكومية والقانونية وخاصة المحاكم، حيث يتجمع رواد المقهى صباحاً، وقت عمل تلك المحاكم، حيث يلتقى كل من المحامين والوكلاء وأصحاب القضايا وغيرهم ممن لديهم أعمال أو صلات بالمحاكم تجعل الجلوس على المقهى له علاقة كبيرة بموقعها الجغرافى.

وقد انتهت الدراسة إلى عدة نتائج وهى:

١- يلعب المقهى بمصر دوراً كبيراً فى الترويح على مترديه حيث يشعرون بعد تمضيتهم لوقت فراغهم بالمقهى وتبادلهم للأحاديث الودية مع بعضهم البعض، وممارستهم للألعاب الشعبية السائدة بالمقاهى كلعبة الطاولة والشطرنج والدومينو، أنهم قد أزالوا عناء يوم عمل سابق، وأصبحوا أكثر نشاطاً لاستقبال يوم عمل جديد.

٢- تلازم العلاقة بين المقهى والبيت من وجهة نظر بعض المترددين على المقاهى حيث يجدون فى الجلوس على المقهى فرصة للهرب من "دوشة" أبنائهم الصغار بالمنزل، كما يكون الجلوس بالمقهى من وجهة نظر البعض تحاشياً وتجنباً لقيام مواجهة عائلية منزلية بين الزوج وزوجته حيث لا تتذكر -من وجهة نظر الزوج- مطالب البيت المتكررة إلا فى حضور الزوج، وهذا ما يعبر عنه أحد الإخباريين من زبائن المقهى بقوله:"بعد ما انبسط فى القهوة واعدل دماغى أروح البيت يضيع منى الانبساط ويضيع معاه طعم القهوة.. والسبب طلبات مراتى".

٣- بينت الدراسة أن هناك بعض المقاهى تضم الصفوة من رجالات المجتمع

السكندرى من العاملين فى مجالات القانون والتعليم وأساتذة الجامعات، وهى المقاهى التى تتميز بموقع جغرافى يمكنها من أداء وظيفتها الترفيهية بصورة وسمعة أفضل عن غيرها.. ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن هناك كثيراً من الاقتراحات والقرارات الخاصة بأمور العمل والإدارات يناقشها الجالسون على المقهى من زملاء العمل الواحد، وما أن يأتى الصباح التالى حتى تكون القرارات والاقتراحات محل التنفيذ داخل الاجتماعات الرسمية فى مصالحهم التى يعملون بها، لاسيما إن كانوا هم من قيادات تلك الهيئات.

٤- يلعب المقهى دوراً مهماً فى مجالات التنشئة السياسية والدعايات الانتخابية والأخبار الرياضية ومعايشة الأحداث المحلية والعالمية، وتكون بمثابة الموضوعات المركزية التى تدور حولها أحاديث ومناقشات الجالسين على المقهى.

٥- اتسمت بعض المقاهى بوظيفتها التجارية لقربها من نشاطات العمل التجارى حيث يكون استثمار وقت الفراغ للمترددين عليها مرتبطاً بأعمال وإنجازات يرغبون فى أدائها مع شركائهم أو ذويهم فى مجال نشاط العمل الواحد.